مشوار مع الأنسة "قذيفة"

الوقت ليلا ، فالساعة الان التاسعة والربع مساء ، والمدينة حلت شعرها وخلعت ثياب اسهار ، واستلقت بين زنـــدي الظلام الزنجي ... والقذائف التي اخرست حناجر السكارى ، ومزامير العربات الملونة تزيد جسدها شهوة جحيمية !.

قبل ان اضع النقطة على شمال اشارة التعجب في الفقرة اعلاه ، أزت رصاصة قادمة من « بيروت الشرقية » بمحاذاة النافذة ، وانفجرت على بعد مترين من غرفتي .. كان يمكن ان تدخل الرصاصة نافذتي المفتوحة على مصراعيها ، وتستوطن تلافيف دماغي ، فترتفع على جبيني شاهدة تثبت بدمي تاريخها .. ولادتها ووفاتها والقبر الـذي خلدت اليه .. وكان ممكنا ان يكون ثمة طفل زعلان من والده الذي لم يشتر له لعبة جديدة كما وعده في الصباح ، فانتحى زاوية في الشرفة ـ التي وقعت فيها الرصاصة ـ احتجاجا على كذب الوالد ، وبينما هو يحتج تفاجئه الرصاصة بين عينيه ! .. كان يمكن ان يحدث هذا ، ولكنه لم يحدث ، ولم تقتل الرصاصة احدا منا !!

★

بعد ان تناولت غدائي كالمعتاد ، غادرت مطعم « التوليدو » ، ودلفت الى مقهى « حلويات ابو علي » ، فجلست في المقعد الذي يفصل بينه وبين الشارع واجهة زجاجية ..

عادة لا أزور هذا المقهى الا عند الضرورات ، لكن هذه المرة دفعني الشارع المقفر الا من بعض المسلحين أن ألج المقهى .. كان المقهى على غير عادته شبه فارغ .. ومقاعده مصبوغة بالضجر .. !

أنا لا أخاف القذائف ، رغم أن عدم الخوف منها ليس بطولة ، لكن ثمة احساس لا أدري كيف سكنني ـ أنني لن أموت بقذيفة حمقاء .. خوف الناس الذي يقتلع القدمين من اسفلت الشارع ، أشاع في داخلي الاضطراب ، ودفعني بهدوء الى هذا المقهى لاراقب الخوف المتدفق من ارحام القذائف وخواصر الرصاصات الطويلة ، من وراء واجهة زجاجيـــة ..

هذا ما قلته للصديق الذي قاسمني المقعد على غير ما ألفته منه في الايام العادية ..

تأكد لدي شعور بمنتهى العري ، ان الحرب تلغي الكثير مـــن الحماقات الصغيرة التي تبني الحواجز بين الناس ..

اثناء مواجهة الحروب والقذائف والموت ، تولد نوافذ في صـــدور الناس ويطل الواحد منها بقلبه على الآخر ..

عندما يهاجمنا الموت جميعا ، نؤجل الصراعات السخيفة والظنون السوداء التي يبيتها الناس واحدهم للآخر ، وينسجون من شراييهم جسدا واحدا ، يضم المتناقضات ويصهرها ، فتشكل متراسا مـــن المودة تدافع عن الانسانية المهددة بالطلقات والشظايا والموت ..

★

هل فقدت الحرب طعمها الوطني والطبقي ، هل افرغ الذبح الطائفي والسرقات التي نظر لشرعيتها ضلوع الناس من مواجهة المـــوت بالتمترس بالحياة . حتى باعة الخضار الذين كانوا ينامون الى جنب صناديق الفاكهة والفاصولياء لموا حوائجهم ولاذوا بالملاجىء . حتـــى الاطفال الذين كانوا يلعبون بين الازقة رغم القذائف والطلقات يرتجفون الان من اصوات القذيفة .. لانها قتلت آباءهم وامهاتهم وأسلمتهـــم للفقر يلوح بهم على ارصفة المدينة المتفسخة .

هل الانعزالي لم يعد انعزاليا ، والوطني لم يعد وطنيا ؟ .. هـذه هي المشكلة ، فالانعزالي سيبقى انعزاليا طالما نحاربه من بعيـــد بالقذائف ، ويبادلنا بنفس اداة الدمار هذه .

الاطفال لا يعرفون لماذا لا نقاتلهم بين الشوارع ، ننظف وجـــه لبنان العربي من بثورهم المتصهينة .. الاطفال يسألون .. والقذائف وحدها تجيب .. لكنهم لا يفهمون هذه الاجوبة الحمقاء .

★

ما زال المواطن ، والطفل ، والمقاتل ، والشاعر ، والعامل ، وبائع الخضار ، وربة المنزل .. ما زالوا ينتظرون اشراقة النصر علـــى التسوية ، وكامب ديفيد ، وسعد حداد ، وكميل شمعون .. والكتائب والاحرار والصهاينة .. ما زالوا ينتظرون سلام البحر ، وضحكـات الاشجار الجنوبية .. ولكن النصر والسلام وضحك الاشجار لن تأتـــي الا عن طريق عزل شمعون والصهاينة وسعد حداد عن مواطني بيروت الشرقية ، بأساليب ثورية .

★

جميعنا ننتظر ان تتوقف هذه القذائف . لتبدأ الحرب . حـــرب الشوارع والاحراش . حرب المقاتل الثوري ضد الانعزاليين والصهاينـة والمرتزقة . حرب لبنان العربي التقدمي ضد لبنان الضائع بـــين الاحتمالات .

هادي دانيال